العلاقات بين حضارات شرق البحر المتوسط القديمة من خلال دلالات الأساطير اليونانية

بحث مقدم من

الأستاذ الدكتور

محمد السيد عبد الغنى

إن أساطير العالم القديم لم تكن مجرد حكايات خرافية الغرض منها الإثارة والإمتاع وسرد الحكايات بصورة مبالغ فيها. لقد كان للأسطورة وظائف وأبعاد عديدة: فقد كانت تصوِّر في ثناياها نظرة الشعب الذي أبدعها إلى الكون والعقيدة والأخلاق في عالمه وبيئته. كما كانت تلقي الضوء على الجوانب الحضارية والإنجازات والانتصارات والحوادث الجسام ليس في صورة سردية تقريرية بل في إطار رمزي متداخل في صلب نسيج الأسطورة في حبكة متقنة. باختصار، لقد كانت الأسطورة تمثل جهاز دعاية وإعلام قوي وفعال للدولة ومؤسساتها وحكامها وأبطالها وأسلافها. لكن هذه الدعاية كانت ذكية وجذابة تستخدم التلميح دون التصريح والرمز دون التقرير.

إن البعد الذي يعنينا في هذا البحث هو البعد التاريخي في مضمون الأسطورة وخصوصاً نظرة الإغريق إلى العلاقات بينهم وبين جيرانهم في حوض البحر المتوسط في الأزمنة القديمة كما تعكسها أساطيرهم. ومما يجدر بالتنويه هنا أن الأسطورة – في هذا الإطار – لم تكن دوماً ثابتةً على أقدم صورة لها، بل كانت في أحيان كثيرة عرضةً للتعديل والإضافة والحذف على مر العصور القديمة. إن الهدف من هذه التعديلات أو الإضافات اللاحقة على جسم الأسطورة الأصلية – فيما يبدو – هو جعل مثل هذه الأساطير وعاءً يتسع لإضافة المستجدات على هذه العلاقة بحيث تدخل في نسيج الأسطورة القديمة – المحدودة – كما لو كانت جزءاً أصيلاً منها. وفي هذا الإطار يتسع المجال للدعاية والترويج للمنظور والتصور الإغريقي لهذه العلاقات بين الإغريق وجيرانهم من ناحية، وإضفاء عراقة أو ريادة مزعومة – في بعض الأحيان – على بعض جوانب هذه العلاقة بحيث تُبرز تميز الإغريق على من عداهم، وبالتالي تكرِّس نظرية عاشت طويلاً في أذهان الإغريق ألا وهي تفوقهم على غيرهم؛ أي على "البرابرة". كل ذلك كان يتم من خلال جرْعة بارعة في نسج الأساطير من جانب الإغريق وإضافة ما يلائم تصوراتهم الذهنية إليها في رموز وإشارات ومضامين في نسيج الأسطورة لترسيخ هذه المفاهيم في ذهن المتلقي سواء كان من الإغريق أو من غيرهم.

إن البحث الحالي لا يركِّز على سرد أحداث الأساطير المعنية – فهي معروفة ومذكورة في كتب الأساطير اليونانية – وإنما على تلك الدلالات والمضامين والرموز التاريخية والحضارية لهذه العلاقات المتشابكة بين الإغريق وجيرانهم من شعوب شرق البحر المتوسط من وجهة النظر الإغريقية. كما يحاول البحث الوصول إلى تصور موضوعي وتاريخي يحاول تصحيح بعض أوجه الانحياز في الأساطير الدعائية للإغريق.

والآن لنتناول اثنتين من هذه الأساطير ذات البعد التاريخي ونحاول استخلاص ما فيهما من دلالات ورموز أراد مؤلفوهما توصيلها إلى أذهان المتلقين، ومعالجة هذه الدلالات والرموز معالجةً نقدية.

أسطورة إيبو

ملخص القصة ومصادرها:

"إيو" في الأساطير الإغريقية هي ابنة أو من نسل "إيناخوس" أول ملك اسطوري لمدينة أرجوس في بلاد اليونان. وقد وقع زيوس كبير آلهة الإغريق في غرامها، ومن بعدها أصبحت تعاني من أحلام مفزعة مما دفع إيناخوس إلى استشارة وحي الآلهة بشأنها فنصحوه بإبعادها عن منزله فقط. وقد ضبطت هيرا زوجها زيوس متلبسا وهو يحتضن الفتاة فحولها زيوس إلى بقرة بيضاء وأقسم لزوجته هيرا أنه لم يضاجع إيو من قبل. وكلفت هيرا الراعي أرجوس الذي كانت له عيون في كافة أجزاء جسده بمراقبة إيو في صورتها الجديدة طيلة الوقت (حتى لا يتمكن زيوس من مضاجعتها حين يحول نفسه إلى هيئة ثور) كما أرسلت إليها نبابة القطعان كي تلدغها في كل حين حتى لا تستريح أبدا وبالتالي لا تتاح لزيوس أية فرصة لممارسة الحب معها. وللتخلص من مضايقات الحارس أرجوس أرسل زيوس هيرميس رسول الآلهة للتخلص منه، ولكن ظل شبحه يسكن إيو على الدوام كما ظلت نبابة القطعان تلاحق عليها عيشها وتجبرها على الترحال من مكان لآخر. وفي سياق ترحالها مرت بذلك الجزء من البحر الادرياتيكي غرب اليونان والذي سمي بـ "البحر الأيوني" نسبة إليها، كما سمي مضيق "البسفور" (البوسفوروس) (أو مخاضة البقرة) بمناسبة ذكرى عبور البقرة (إيو) له في تجوالها. وفي أثناء مرورها بـ "بروميثيوس" وهو مصفد بالأغلال في صخرة في جبال القوقاز شمال البحر الأسود تنبأ بروميثيوس لها بما سيحدث لها. وأخيرا وصلت "إيو" إلى مصر حيث حولها زيوس إلى صورتها البشرية ومسها بيده فأنجب منها ابنا هو إيباثوس (المولود باللمس). وطبقا لإحدى الروايات فإنها عبدت هناك على أنها الإلهة إيزيس (ويمثل إيباثوس على أنه العجل أبيس). ثم ترد "ليبيا" في الأسطورة على أنها ابنة إيباثوس وتنجب (من بوسيدون، حسب روايات متأخرة) بيلوس الذي ينجب بدوره ولدين هما إيجبتوس وداناوس وينجب الأول خمسين ولدا والثاني خمسين بنتا وتحدث القصة المعروفة في مسرحية "الضارعات" لأيسخيلوس من تعقب أبناء إيجبتوس لبنات عمهم في أرجوس للزواج منهم.

إن المصادر الأدبية التي وردت بها التفاصيل المختلفة لهذه الأسطورة هي مسرحية ايسخيلوس "الضارعات" وكذلك مسرحيته "بروميثيوس في الأغلال" من القرن الخامس ق.م.، وكذلك قصيدة ديثورامبية كاملة من قصائد باخيليديس (المقطوعة التاسعة عشرة). كما ترد قصة "إيو" كذلك عند أبولودوروس من القرن الثاني ق. م. في مؤلفه "المكتبة" الذي يتناول الأساطير البطولية للإغريق. ولكن أبولودوروس يزيد في هذه القصة أن ليبيا لم تنجب "بيلوس" فقط بل أنجبت كذلك أخاه "أجينور" الذي تزوج من ابنة أخيه بيلوس المدعوة "داميو" والتي أنجبت له ولدا هو "كويديكس" حسبما ورد في رواية أخرى.

مصادر الأسطورة

(حسب ترتيب ذكر إيو فى المصادر القديمة)

- Aeschylus; Prometheus Bound 705 ff and Suppliants 457 ff.
- Herodotus: I: 1 and II. 41.
- Euripides: Ephigenia Among the Taurians 382.
- Apollodorus: II. 1.3.
- Hyginus: Fabula 145.
- Strabo: X.1.3.
- Suda: sub IO and sub Isis.
- H. Malalas: Chronicles II.p.28, ed. Dindroff.
- Tzetzes: On Lycophron 835 ff.

دلالات الأسطورة :

إن ما يعنينا هنا هو الدلالة التاريخية للأسطورة حول علاقة الإغريق بمصر. ماذا يعنى مجىء إيو إلى مصر وتتبع زيوس لها وإنجابها منه بالمس والصراع بين نسلها المتمثل فى محاولة أبناء ايجبتوس الزواج عنوة من بنات عمهم دانلوس وتعقبهم حتى بلاد اليونان؟.

هل يشير ذلك إلى علاقة مبكرة نشأت بين الإغريق والمصريين منذ وقت مبكر فى التاريخ اليونانى؟ إن الحضارات اليونانية المبكرة مثل الحضارة المينوية فى كريت والحضارة الموكينية فى موكيني ووسط وجنوب اليونان خلال الألف الثانى ق.م. فى عصر البرونز فى البلاد اليونان كانت تربطها بمصر علاقات تجارية وحضارية وثيقة. ولعل خير دليل على قوة وكثافة تلك العلاقات العدد الهائل من الآثار المصرية الذى عثر عليه فى بلاد اليونان من الألف الثانى ق.م.، وكذلك فإن الكتابات الكريتية المبكرة التى ترجع إلى أوائل الألف الثانى ق.م. كانت كتابة هيروغليفية شبيهة بالكتابة الهيروغليفية المصرية من حيث اعتمادها على الصور والرسوم فى التعبير عن الحروف مما يدل على تأثرها بالثقافة المصرية من خلال الوجود المكثف للتجار المصريين فى كريت. معنى ذلك أن اتصال الإغريق بمصر لم يتجاوز بدايات الألف الثانى ق.م. – حيث لم تنشأ حياة حضارية منتظمة فى بلاد اليونان قبل ذلك – فى حين أن مصر عرفت الحياة الحضارية المستقرة منذ الألف الخامس ق.م. وتوحدت فى مملكة واحدة على يد مينا (نارمر) مؤسس الأسرة الأولى الفرعونية فى أواخر الألف الرابع ق.م.

وحتى ذلك الاتصال الوثيق بين الطرفين الألف الثاني ق.م. كانت الكلمة العليا فيه للمصريين بمعنى أن المصريين كانوا هم الأكثر ذهاباً إلى كريت وبلاد اليونان بدليل القرائن المذكورة أعلاه. أما مجيء الإغريق إلى مصر من تلك الفترة المبكرة فقرائنه محدودة ويكتنفها الغموض ولعل أبرزها لوحة "الكفتيو" من عصر الدولة الحديثة والملك تحتمس الثالث التي يرجح بعض العلماء أنها تعني أهل كريت. وفي قصة "سقوط طروادة" على يد الحملة الإغريقية المتحدة التي تزعمها "أجاممنون" ملك موكيني في أواخر القرن الثالث عشر ق.م. لاسترداد "هيلين" زوجة الملك مينيلاوس ملك أسبرطة التي أغواها الأمير الطروادي باريس وهرب بها إلى طروادة – وهي آخر جهد مشترك للإغريق تحت زعامة موكيني – نجد رواية أخرى متأخرة عن "هيلين" من القرن السادس ق.م. بدءاً من الشاعر ستيسيخوروس. هذه الرواية – التي وردت كذلك في مسرحية "هيلين" للشاعر يوريبيديس من أواخر القرن الخامس ق.م. – تذكر أن "هيلين" الحقيقية لم تذهب مع باريس إلى طروادة بل أن زيوس جعل هيرميس يحملها إلى مصر لتكون في حماية ملكها بروتيوس، أما من ذهب إلى طروادة مع باريس فهو شبحها أو طيفها، وأن مينيلاوس قد ذهب إلى مصر بعد نهاية الحرب الطروادية واصطحب زوجته الحقيقية – بعد لقائه طيفها – بعد مغامرة محفوفة بالمخاطر ضد ملكها ابن بروتيوس الذي كان يطمع فيها لنفسه.

بمعنى ذلك كله أن منطق الأحداث والعلاقات المصرية اليونانية خلال الألف الثاني ق.م. لا يوحي بارتباط بين قصة "إيو" الأسطورية وأية قرائن تاريخية من تلك الفترة، بل الأرجح إن دلالات الأسطورة تشير إلى عصر لاحق. ورغم مخالفة الأسطورة لتلك الوقائع والقرائن التاريخية زمنياً فربما كان مجيء إيو إلى مصر معبراً عن أقدم مرحلة من مراحل العلاقات التجارية والحضارية بين اليونان ومصر، وربما عبّر في الوقت ذاته في الأسطورة وبقية تداعياتها عن استقرار بعض الإغريق بمصر، بمعنى أن الأسطورة أغفلت عنصر الزمن وركزت على المضامين التاريخية والحضارية لهذه العلاقة المتشابكة المتواصلة منذ أمد بعيد.

إن أول "استقرار" للإغريق في مصر يبدأ في أواخر القرن السابع ق.م. حين سمح الملك "بسماتيك الأول" من ملوك الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية بإقامة مستوطنة تجارية لهم في "نقراطيس" شمال غرب الدلتا المصرية حوالي عام ٦٢٠ ق.م بعد أن سانده المرتزقة الإغريق في طرد الأشوريين من مصر. وبدأت التجارة الإغريقية مع مصر تعاود ازدهارها من خلال هذا المرفأ على الفرع الكانوبي للنيل الذي كان يبعد عن البحر مسافة خمسين كيلومتراً تقريباً وتوافد عليها إغريق المدن اليونانية لا سيما من ساحل آسيا الصغرى – خصوصاً ميليتوس – واستقروا بها وبالتالي أصبحت نقراطيس في عهد الفرعون أمازيس (٥٧٠ – ٥٢٥ ق.م) الميناء الرئيسي لمصر وبلغت درجة عالية من الأهمية التجارية بحيث أصبحت تجارتها تنظمها القواعد التجارية الملكية وأصبح الوجود الإغريقي في مصر مرتكزاً في نقراطيس. وظلت نقراطيس – تلك المستوطنة الإغريقية في مصر – تتبوأ وضع الميناء الرئيسي في مصر حتى أقيمت الإسكندرية على يد الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق.م.

الأرجح أن دلالة أسطورة "إيو" التي نسجها الخيال الإغريقي ترتبط أكثر بفترة الاستيطان الإغريقي هذه في مصر خلال القرنين السابع والسادس ق.م. وأن "إيو" ربما ترمز إلى كل الإغريق الذين استقر بهم المقام في مصر بعد طواف طويل في مناطق عدة أما نيابة القطعان التي تطاردها في كل مكان فترمز إلى الفقر وسوء الظروف الاقتصادية في بلاد اليونان التي دفعت بالكثيرين إلى ترك أوطانهم والبحث عن أرزاقهم – كجند مرتزقة أو تجار – في مناطق أخرى. أما عن اتصال زيوس بإيو في مصر فيرمز إلى ارتباط الإغريق في مصر بعقيدتهم اليونانية ورمزها زيوس رغم بعدهم عن الوطن، ولذلك فالاتصال كان غير مباشر بين هؤلاء المهاجرين أو المستوطنين الإغريق في مصر وعقائدهم ومعبوداتهم في بلاد اليونان لكنه لم ينقطع وهو ما يرمز إليه انجلب إيو من زيوس عن طريق اللمس. معنى ذلك أن حياة الإغريق استمرت في المهجر بعيداً عن الوطن وتواصلت بمباركة آلهتهم ورعايتهم لهم من على البعد حسب اعتقاداتهم.

أما الصراع بين أبناء ايجيبتوس وبنات داناووس في الأسطورة فربما كان من الممكن الإشارة إلى دلالاته في أحداث القرن السادس ق.م. بين مصر وبعض المدن اليونانية. إن هيرودوت يخبرنا بوجود تحالف بين أمازيس ملك مصر (٥٧٠ – ٥٢٦ ق.م.) وبوليكراتيس طاغية جزيرة ساموس قرب ساحل آسيا الصغرى في حوالي منتصف القرن السادس ق.م. لمواجهة أي عدوان من قبل الفرس (كان بوليكراتيس مشهوراً بقوة أسطوله البحري بين المدن اليونانية). ويروي هيرودوت قصة مفادها أن أمازيس ربما شعر بالغيرة والحسد تجاه بوليكراتيس فقض تحالفه معه، ولكن الأرجح أن بوليكراتيس هو الذي فضّ تحالفه مع أمازيس وانضم للفرس بقيادة قمبيز في هجومهم على مصر التي أصبحت ولاية فارسية عام ٥٢٥ ق.م. تحت حكم قمبيز.

في هذا الموقف الأخير وهو هجوم الفرس على مصر بقيادة قمبيز بن كورش ومساندة بوليكراتيس طاغية ساموس لهم لابد أنه وقع اشتباك بين إغريق مصر من مرتزقة الملك أمازيس وإغريق بلاد اليونان من أهل ساموس. هذا الصراع بين الإغريق على الجانبين ربما كان يرمز إليه في الأسطورة صراع أبناء ايجيبتوس (إغريق مصر) ضد بنات داناووس (إغريق بلاد اليونان الأصلية وآسيا الصغرى الذين يُشار إليهم في المصادر اليونانية المبكرة بـ "الداناويين") حتى ولو كان مسرح الصراع الحقيقي في مصر وليس في بلاد اليونان كما أوردت الأسطورة. ولعل الخيال الإغريقي الذي ابتدع الإسطورة في تلك الأونة قد استفاد من ذكر المصريين "Αιγυπτιοι" ومصر "Αιγυπτος" ، وكذلك "الداناويين" (إحدى المسميات التي تشير إلى اليونانيين Δαναοι في إلياذة هوميروس) فابتدع شخصيتي "أيجيبتوس" و"داناووس" وابتدع صلة القرابة بينهما في إشارة إلى العلاقات القديمة بينهما ولو أضفى على الإغريق فضل السبق في هذه العلاقة، وهذا طبيعي في أسطورة إغريقية من وحي الخيال الإغريقي الذي يجنح إلى نسبة الريادة والمبادرة للإغريق رغم أن الأمر لم يكن كذلك في واقع الأمر.

(٣) أسطورة يوروبا وكادموس

ملخص الأسطورة:

رأينا فى أسطورة "يو" أن ايفاوس ابن إيو الذى أنجبته بالمس من زيوس وهى فى مصر قد أنجب بدوره ابنة هى "ليبيا" التى أنجبت من بوسيدون ولدين هما بيلوس (والد إيجبتوس وداناووس) وأجينور. غادر أجينور مصر ليستقر فى أرض كنعان حيث تزوج من "تيليفاسا" – واسمها كذلك أرجيوبى – التى أنجبت له خمسة أبناء هم كادموس وكيلكس وثاسوس وفينيوس وفوينيكس وابنة واحدة هى يوروبا.

وقع زيوس – كبير آلهة الإغريق – فى غرام يوروبا فبعث بهرميس – رسول الآلهة – لكى يدفع ماشية أجينور إلى شاطئ البحر فى "صور" حيث كانت يوروبا ورفيقاتها قد اعتدن السير هناك. ولحق زيوس بقطيع ماشية أجينور وهو متنكر فى هيئة ثور ناصع البياض ذى لقدين كبيرين وقرون دقيقة تشبه الجواهر بينهما خط أسود. وحين وقعت عينا يوروبا على الثور الأبيض أخذت بجماله وانبهرت برقته كالحمل الوديع فلم تجفل منه وبدأت تداعبه وتضع الزهور فى فمه وتضع أكاليل الزهور حول قرنيه ثم استطاعت فى نهاية الأمر وتركته يلعب بها ويمشى اليوينا نحو حافة البحر. وفجأة بدأ يسبح بعيدا بينما كانت هى تنظر فى فزع إلى الشاطئ الذى انحسر وكانت إحدى يديها قابضة على قرنه الأيمن والأخرى لا تزال ممسكة بسلة زهور.

واقترب زيوس (فى هيئة الثور) من جزيرة كريت وبدأ يخوض فى المياه الضحلة قرب مدينة "جورتينا" الكريتية (فى الجنوب الأوسط من كريت) حيث تحول إلى نسر واقع يوروبا فى أجمة من الصفصاف قرب نبع ماء، أو فى رواية أخرى تحت شجرة دلب دائمة الأخضرار. وقد أنجبت يوروبا من زيوس ثلاثة أبناء هم مينوس ورادامانثيس وسارپيدون.

وعلى أثر اختفاء يوروبا أرسل أجينور أولاده بحثاً عن أختهم وشدد عليهم ألا يعودوا من غيرها فأجروا على الفور، ولكن لما لم يكن لديهم فكرة عن مكان ذهاب الثور فقد اتجه كل منهم فى سبيل مختلف عن الآخرين. فقد سلك فوينكس طريق الغرب وسافر إلى ما وراء ليبيا إلى منطقة قرطاجة وما وراءها وأعطى اسمه للمناطق والسكان الفينقيين (البونيقيين) هناك، ولكن نظراً لأنه عاد إلى أرض كنعان بعد وفاة أجينور سميت هذه المنطقة من أرض كنعان "فينقيا" نسبة إليه، وأصبح أباً لأدونيس وألفوسيبوبا. وتوجه كيلكس إلى أرض الـ "هياخيين" التى تسمت باسمه "كليكيا" فى جنوب سيا الصغرى فى حين ذهب "ثاسيوس" إلى "تينيا" وهى شبه جزيرة تفصل بحر مرمرة عن البحر

الأسود (خرسونيس طراقيا على الخريطة المرفقة بكتاب روبرت جريفز) حيث أزعجتـــه بعـد ذلـك الكائنات الخرافية الخطافة على شكل نصف إمرأة ونصف طير. أما ثاموس ورفاقه فقـد اتجـهوا أولاً إلى أولمبيا ثم انطلقوا بعد ذلك لاستيطان جزيرة "ثاموس" شمال بحر إيجة وتشغيل مناجم الذهب فيها.

ولما كادموس وأمه "تيليفاسا" فاتجها إلى رودس حيث ذرا لأثينا ليندوس مرجلا من البرونز وأقامـا معبدا لبوسيدون ثم مرا مرورا عابرا بجزيرة ثيرا، وفي الطريق ماتت أمـــه تيليفاســا، وتوجـه كـادموس ورفاقه على الأقدام إلى وحي دلفي. وحين سأل كادموس كهنة دلفي عن مكان يوروبا نصحتـــه الكاهنـة بأن يكف عن البحث عنها وأن يتعقب بقرة ويبني مدينة حيثما حطت هذه البقرة من فرط الإرهاق.

وغادر كادموس مكان الوحي من دلفي إلى فوكيس وفي طريقه شاهد قطيعا من الأبقار في خدمـة الملك بيلاجون الذي باعه بقرة على كل جانب من جانبيها شكل بدر أبيض في تمامه. وقاد كادموس البقـرة نحو الشرق إلى إقليم بوزوتيا ولم يدعها تسترح أبدا إلا حين خرت أخيرا من التعب وحطت رحالـــها حيـث توجد مدينة "طيبة" بعد ذلك وهي التي أقامها كادموس حول المكان الذي حطت فيه البقرة.

وأوصى كادموس رفاقه بأنه لابد من تقديم البقرة قربانا لأثينا دون إبطاء وبعث بهم لإحضـــار ماء صاف من نبع آريس دون أن يدري أنه كان يحرس هذا النبع ثعبان ضخم. هـــذا الثعبـان أهلـك معظم رجال كادموس فانتقم الأخير منه بأن هشم رأسه بصخرة. وما إن قدم كادموس الأضحيـــة إلـى أثينا حتى ظهرت له أثينا وامتدحته على ما قام به وأمرته أن يبذر أسنان الثعبان في التربـــة. وحيـن أطاع كادموس أوامرها نبت من التربة رجال مسلحون فتقاتلوا مع بعضهم البعض بالأســـلحة، وقـذف كادموس بحجر بينهم فبدأوا بالاشتباك والتشاجر وكل منهم يتهم الآخر بأنه الذي ألقى بالحجر وتحاربوا بضراوة بالغة حتى لم يتبق منهم سوى خمسة رجال عرضوا جميعا تقديم خدماتهم لكـــادموس. ولكـن أريس طالب بالانتقام لقتل الثعبان الذي كان يحرس نبعه وحكمت محكمة مقدسة على كادموس ليصبـح عبدا لمدة عام طويل.

مصادر الأسطورة:

- Herdotus: 1,1; II. 44; IV. 47; and VII. 91
- Apollonius Rhodius: Argonautica II. 174.
- Apollodorus: III. 1; 4. 1-2 and; 14. 4.
- Hyginus: Fabula 19 and 178.
- Ovid: Metamorphoses II 836 ff.
- Pausanias: V 25. 7 and IX. 12. 1-2.

تشير هذه الأسطورة إلى الاتصال المبكر بين بلاد الإغريق والساحل الكنعاني وإن كان هذا الاتصال قد تم في مرحلة لاحقة من اتصال الإغريق بمصر (وهو الاتصال الذي ترمز أسطورة وصول إيو إليها إلى بدء تلك العلاقات) إذ تبدأ هذه العلاقة - حسبما ترمز الأسطورة - بمغادرة أجينور - حفيد إيو - مصر إلى أرض كنعان. وهكذا فإن أجينور - حسب الأسطورة الإغريقية - يتحدر من أصول إغريقية وسكن أرض كنعان قادماً من مصر. ربما كان ذلك يعني أن القدم اتصال للإغريق بجيرانهم في شرق البحر المتوسط كان مع مصر الفرعونية التي ألفوا التعامل معها، ويبدو أنهم تعرفوا في مرحلة لاحقة على الساحل الكنعاني من خلال العلاقات القديمة والوثيقة بين مصر الفرعونية وتلك المناطق، فانطلق بعض الإغريق من مصر وبدأوا في التعامل مع الساحل الكنعاني. إن اختطاف زيوس ليوروبا ابنة أجينور ومواقعتها في كريت ربما كان يشير إلى فترة توجهت فيها الحضارة الكريتية نحو التعامل مع الساحل الكنعاني بعد غزو الهكسوس لمصر (احتل الهكسوس مصر حوالي مائة وخمسين عاماً من ١٦٧٠ إلى ١٥٢٠ ق.م.) وتوطدت علاقات الطرفين الكريتي اليوناني والكنعاني وتنوعت بين علاقات تجارية وحضارية، وربما يشير الحادث الأسطوري أيضاً إلى أن التأثير الكنعاني كان أقوى وأن الإغريق نقلوا المؤثرات الحضارية الكنعانية (الممتزجة بأصول يونانية إذ أن يوروبا وأباها أجينور من نسل إيو اليونانية) الممثلة في شخص "يوروبا" إلى بلادهم. ونكاح زيوس ليوروبا وإنجابه منها مينوس يدل على أن ثمة تفاعل حضاري أو تلاقح حضاري قد تم بين الحضارتين استفادت منه الحضارة الكريتية وازدهرت وتمثل ذلك في شخص أبرز وربما أهم ملوكها وهو مينوس الذي أطلق اسمه على الحضارة الكريتية (المينوية).

ولعل طريقة اختطاف زيوس ليوروبا وما شابها من حيلة وخديعة ترمز إلى دهاء الإغريق في نقل منجزات الحضارة الكنعانية إلى بلادهم والاستفادة منها وتطويرها (إنجاب يوروبا أبناء من زيوس)، والأرجح أن ذلك قد تم بغير رضا وموافقة الكنعانيين مما استفزهم وجعلهم يقومون برد فعل مضاد سنتحدث عنه بعد قليل. وهناك تفسير آخر لهذه الحادثة الأسطورية عند جون ملالاس الذي يكتب عن "المساء الآثم" في مدينة صور الفينيقية فيقول: "لقد هاجم تاوروس (الثور) - ملك كريت - صور بعد معركة بحرية أثناء غياب أجينور وأولاده، وسقطت المدينة في أيدي الكريتيين في نفس المساء فأخذوا معهم كثيراً من الأسرى من بينهم يوروبا. إن هذا الحدث لا يزال يذكر في الحوليات في صور باسم (المساء الآثم)." لذلك من الصعب أن نرجح إن كانت حادثة خطف يوروبا على يد زيوس تشير إلى أن الإغريق قد نقلوا من الكنعانيين من أهل صور بعضا من إنجازاتهم الحضارية أم أنهم شنوا على "صور" حملة عسكرية وأسروا بعض أهلها كما يشير ملالاس رغم أنه مصدر متأخر،

وإن كان هيرودوت كمصدر مبكر ينحو هذا النحو، عموما حتى وإن صحت أخبار هذه الحملة العسكرية فإن هذا لا يمنع تأثر الإغريق بالمنجزات الحضارية لأرض كنعان قبل الحملة وبعدها.

لما انطلاق أبناء أجينور في مرحلة لاحقة من الأسطورة وانتشار معظمهم في شرق البحر المتوسط بحثا عن أختهم يوروبا التي اختطفها زيوس فيشير إلى أن الكنعانيين وخصوصا أهل صور – وإن كانت صيدا مذكورة أكثر في ملاحم هوميروس – قد بدأوا ينطلقون في تلك البقاع يبادلون الإغريق التجارة والحركة. بل أنهم أخذوا – في مرحلة لاحقة ربما كانت فترة انهيار الحضارة الكريتية وانحلال وتدهور الحضارة الموكينية بدءا من القرن الثاني عشر ق.م. – زمام المبادرة وأصبحوا أنشط من الإغريق في مجال التجارة عبر أرجاء البحر المتوسط وإقامة المستوطنات الفينيقية (التسمية الجديدة بدلا من "الكنعانية" وهي تسمية أطلقها عليهم الإغريق). ومن المرجح أن من بين العناصر التي ساعدت على فتح الباب على مصراعيه أمام الفينيقيين في ارتياد آفاق شرق البحر المتوسط والانطلاق إلى أقصى الغرب نحو شواطئ المحيط الأطلسي في بريطانيا وغرب أفريقيا هو الغزو الدوري الكاسح لبلاد اليونان خلال القرنين الحادي عشر والعاشر ق.م. وهو الغزو الذي أطاح بما بقي من الحضارة الموكينية وأشاع الذعر والفوضى بين الإغريق وجعلهم يتخلفون قرونا للوراء ويعودون بعد نهاية الفترة المسماة "بالعصر المظلم" من القرن الحادي عشر إلى أواخر القرن التاسع ق.م. إلى البداية الحضارية من جديد مستعينين هذه المرة بالفينيقيين بعد أن أخذوا عنهم أبجديتهم وطوروها.

إن بحث أبناء أجينور عن أختهم يوروبا في أرجاء مختلفة من بلاد اليونان وبحر إيجة وآسيا الصغرى واستقرارهم هناك وإطلاق أسمائهم على مناطق عدة هناك كما رأينا يشير إلى هذه الفترة من المد الفينيقي على ساحل بحر إيجة وتأثيراتهم التجارية والحضارية في المنطقة في الفترة من القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن ق.م. تقريبا. ولعل أبرز إخوة يوروبا الذين ظلوا يبحثون عنها في بلاد اليونان كان كادموس الذي تنسب إليه الأسطورة بناء مدينة (طيبة) اليونانية. إن هذا الجزء من الأسطورة يضم دلالات رمزية مثيرة إذ انتقل كادموس وأمه تيليفاسا من صور إلى رودس ثم ثيرا وقدما أضحيات وأقاما معابد لآلهة الإغريق وفي ذلك دلالة على تأقلم بعض وجوه الحضارة الفينيقية مع البيئة الإغريقية الجديدة. ثم توفيت تيليفاسا وهذا معناه تناقص المسحة الفينيقية في هذه المؤثرات ولاكتسابها لمزيد من التأثر بالبيئة الجديدة واصطباغها أكثر فأكثر بالصبغة الإغريقية. وفي نفس الاتجاه ترمز بقية تفاصيل هذا الجزء من الأسطورة مثل طلب كهنة وحي دلفي من كادموس الكف عن البحث عن يوروبا ونصحه ببناء مدينة جديدة في بلاد اليونان (مزيد من التخلي عن موروثه الفينيقي ومزيد من الاندماج مع البيئة الجديدة والتفاعل معها والتأثير الإيجابي فيها)، ولعل تفاصيل المشهد الأخير من هذا الجزء يتوج هذا الاتجاه نحو الاستفادة القصوى من المؤثرات الفينيقية وصبغها تماما بالمسحة الإغريقية: فقتل معظم رجال كادموس على يد الثعبان الضخم الذي يحرس نبع آريس يرمز

إلى تذويب هذه المؤثرات الفينيقية وهضمها تماما فى البيئة الإغريقية، وكذلك فإن مشهد الرجال المحاربين المسلحين الذين نبتوا من الأرض بعد زرع أسنان هذا الثعبان فيها وقضائهم على بعضهم البعض بحيث لم يبق سوى خمسة فى نهاية الأمر ربما يشير إلى تأكل وإنهيار معالم الحضارة اليونانية القديمة إثر الغزو الدورى، أما الخمسة رجال المتبقين فربما كانوا يشيرون إلى الحروف المتحركة التى أضافها الإغريق إلى الأبجدية الفينيقية التى تبنوها وأخذوها عن الفينيقيين والتى كانت ذات حروف ساكنة وتخلو من الحروف المتحركة فأضافها الإغريق.

إن الأسطورة تشير كذلك إلى المد والتوسع الفينيقى حتى غرب البحر المتوسط وذلك يتمثل فى ذهاب فوينيكس ابن اجينور إلى غرب البحر المتوسط وشمال أفريقيا وكيف أنه جعل للكنعانيين هناك موضع قدم سرعان ما توسعوا بعده نحو الغرب حتى وصلوا كما نعرف إلى جنوب أسبانيا بل وحتى سواحل المحيط الأطلسى وبريطانيا. ولعل هناك تساؤل يفرض نفسه هنا وهو: لماذا سمى هؤلاء الكنعانيين من أهل صور والساحل اللبنانى بالفينيقيين نسبة إلى فوينيكس هذا دون بقية إخوته من أبناء أجينور؟ إن الأسطورة تجيب عن هذا التساؤل بالقول بأن السبب فى ذلك هو عودة فوينيكس – دون بقية إخوته – إلى صور بعد وفاة أبيه أجينور ومن ثم أطلق أسمه على منطقة الساحل اللبنانى وبقية المستوطنين المنحدرين من نسله فى غرب المتوسط وشمال أفريقيا.

لكن المعالجة الأسطورية لمصير بقية أبناء أجينور الذين ذهبوا على سواحل بحر إيجة وبلاد اليونان تريد أن توصل رسالة ضمنية مفادها أن تأثير أهل وحضارة الساحل الكنعانى أثرت فى مناطق عديدة غير حضارية فى غرب المتوسط وتركت بصماتها القوية عليها رغم قلة المجهود الكنعانى المبذول هناك (واحد فقط من أبناء أجينور) فى حين لم يستطع مجهود كنعانى مكثف (أربعة من أبناء أجينور) فى ترك بصماتهم على بلاد اليونان ذات الحضارة القديمة التى فرضت على هؤلاء الكنعانيين الاصطباغ بالصبغة اليونانية وإذابتهم فى البيئة الجديدة، وأنه حتى وإن تأثرت بلاد اليونان تأثرا غير مباشر بهم من خلال اكتساب الأبجدية الفينيقية فإن ذلك ناجم عن فترة انعدام الوزن اليونانى إثر غزو الدوريين، ومع ذلك ترك الإغريق بصماتهم على تلك الأبجدية المقتبسة بإضافة الحروف المتحركة الخمسة على الحروف الفينيقية الساكنة.

وهكذا تروج الأسطورة للحضارة اليونانية وتضفى عليها فضل العراقة والإضافة فى كل حين، وإنها حتى وإن أخذت عن غيرها فدائما ما تهضمه وتطوره. إنها الدعاية والإعلان فى ثوب الأسطورة.

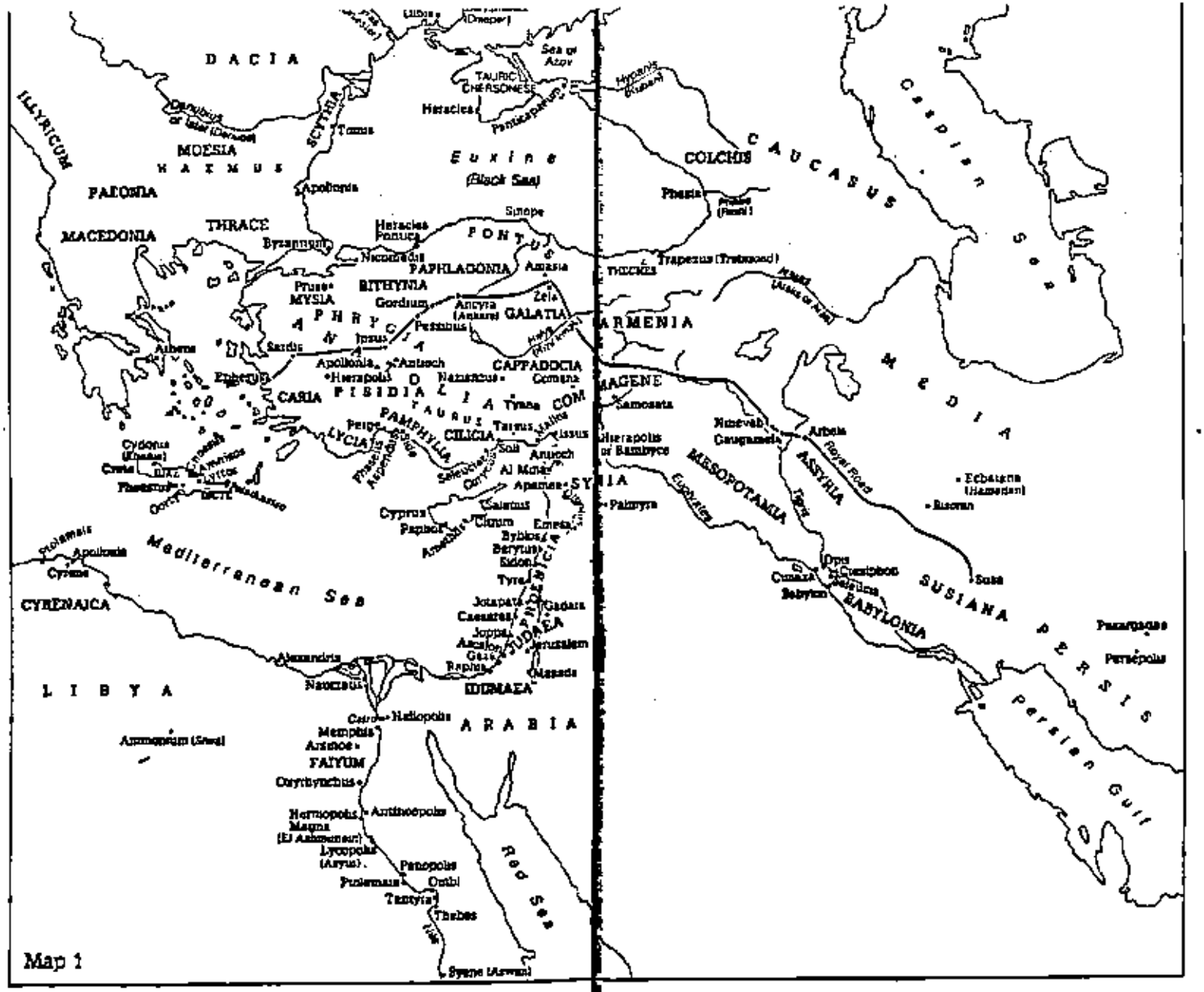
DACIA
ILLYRICUM
MOESIA
HAEMUS
PAEONIA
MACEDONIA
THRACE
Euxine
(Black Sea)
Sea of Azov
TAURIC CHERSONESE
SCYTHIA
Heraclea
Tomis
Apollonia
Byzantium
Sinope
PONTUS
PAPHLAGONIA
BITHYNIA
MYSIA
PHRYGIA
GALATIA
Gordium
Ancyra (Ankara)
Pessinus
Amasia
Zela
Trapezus (Trebizond)
COLCHIS
Phasis
CAUCASUS
Caspian Sea
ARMENIA
MEDIA
Ephesus
Sardis
Ipsus
Apollonia
Antioch
Hierapolis
CAPPADOCIA
Comana
Tyana
CARIA
PISIDIA
LYCIA
PAMPHYLIA
CILICIA
Tarsus
Issus
Soli
Aegae
Perge
Phaselis
Aspendus
Cydonia (Khania)
Crete
Phaestus
Gortyn
Lasaea
Cyprus
Paphos
Citium
Amathus
Salamis
Apollonia
Cyrene
CYRENAICA
Mediterranean Sea
Alexandria
Naucratis
LIBYA
Ammonium (Siwa)
Memphis
Arsinoe
FAIYUM
Heliopolis
Cairo
ARABIA
IDUMAEA
JUDAEA
Jerusalem
Jericho
Jericho
Jericho
Masada
Gaza
Ascalon
Joppa
Caesarea
Tyre
Sidon
Berytus
Byblos
Emesa
Palmyra
Samosata
Hierapolis or Bambyce
Nineveh
Gaugamela
Arbela
Royal Road
ASSYRIA
MESOPOTAMIA
Euphrates
Tigris
Ecbatana (Hamadan)
Rhagae
Opis
Ctesiphon
Seleucia
Babylon
BABYLONIA
SUSIANA
Susa
PERSIS
Pasargadae
Persepolis
Persian Gulf
Red Sea
Hermopolis Magna (El Ashmounein)
Lycopolis (Asyut)
Antinoopolis
Panopolis
Ptolemais
Thebes
Syene (Aswan)

Map 1

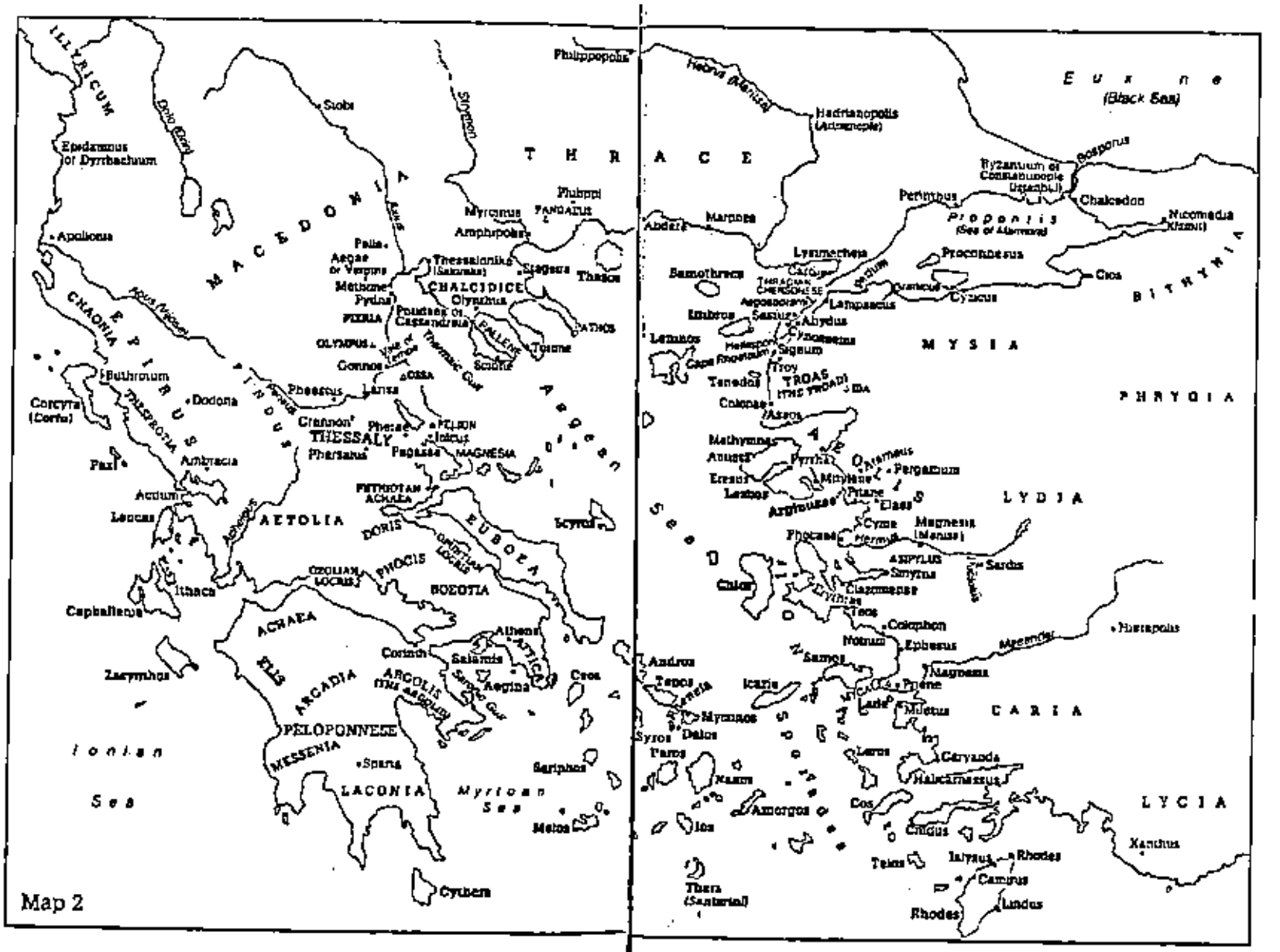
ILLYRICUM
Dalo Bord
Epidamnus or Dyrrhachium
Apollonia
Stobi
Philippopolis
Strymon
THRACE
Hadrianopolis (Adrianople)
Euxine (Black Sea)
Bosporus
Byzantium or Constantinople (Istanbul)
Chalcedon
Nicomedia (Ismid)
Perinthus
Propontis (Sea of Marmora)
Marmora
Abdera
Philippi
Myrcinus
Amphipolis
PANGAEUS
MACEDONIA
Pella
Aegae or Verginа
Thessalonika (Salonika)
Stagirus
Thasos
Methone
Pydna
CHALCIDICE
Olynthus
Potidaea or Cassandreia
PIERIA
OLYMPUS
Vale of Tempe
Thermaic Gulf
PALLENE
ATHOS
Torone
Scione
Gonnus
OSSA
Scotussa
Pharsalus
Pagasae
MAGNESIA
Iolcus
PELION
Pherae
Larisa
Phaestus
Crannon
THESSALY
Dodona
Buthrotum
Corcyra (Corfu)
CHAONIA
EPIRUS
THESPROTIA
Acheron
Pass of Aous
Paxi
Ambracia
Actium
Leucas
AETOLIA
DORIS
OPUNTIAN LOCRIS
EUBOEA
Scyros
PHTHIOTAN ACHAEA
OZOLIAN LOCRIS
PHOCIS
BOEOTIA
Ithaca
Cephallenia
ACHAEA
Athens
ATTICA
Corinth
Salamis
Aegina
Zacynthus
ELIS
ARCADIA
ARGOLIS
Saronic Gulf
Argos
Ceos
PELOPONNESE
MESSENIA
Sparta
LACONIA
Ionian Sea
Myrtoan Sea
Seriphos
Melos
Cythera
Lesbos
Methymna
Arisbe
Eresus
Mytilene
Pyrrha
Antissa
Pitane
Elaea
Pergamum
Arginusae
LYDIA
Cyme
Phocaea
Hermus
Magnesia (Manisa)
ASPYLUS
Smyrna
Sardis
Chios
Clazomenae
Teos
Colophon
Notium
Ephesus
Hierapolis
Samos
Andros
Tenos
Icaria
Lade
Miletus
Myonnus
CARIA
Syros
Delos
Paros
Naxos
Amorgos
Cos
Halicarnassus
Caryanda
Cnidus
LYCIA
Xanthus
Telos
Iasyrus
Rhodes
Camirus
Lindus
Thera (Santorini)
Abydus
Lampsacus
Lemnos
Imbros
Samothrace
Lysimachea
Procennesus
Cius
BITHYNIA
Troy
TROAS
Tenedos
Colonae
Assos
MYSIA
PHRYGIA

Map 2